

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

إذا وجد المختصون في علم ما فائدة ومفعة حين يخلون بأنفسهم إلى تراجع من سبقهم في هذا العلم، فإن متعتهم بتاريخ العلم نفسه أحفل وأعظم. إننا ننثني عادة على من يؤلف كتاباً في حياة عالم، إذ يتيح لنا أن نعيشه فنعاين جده ودأبه، ونلذ نضاله لكشف الغامض ودفع العلم إلى الأمام ولو خطوة، ونجد الأسوة في استهانتته بالعراقيل والمعوقات، ووقوفه للزمان والحساد والخصوم والجاهلين، وإن في حياة كل عامل من هذا لنصيباً. لذلك نشكر لهذا المؤلف ما يسر لنا من لذائذ سامية.

لكن المسهم في تاريخ العلم لا يحصل على الشكر والثناء في وقت قصير، وقد يقتضيه سطر واحد يخطه في تاريخ العلم من الجهد وطول العمل ما لم يعاينه المؤلف الأول في مجلد. ومن ظن أن حياة باحث تقي بتاريخ علم فقد ظن باطلاً، إنما يتم ذلك بتضافر جهود الباحثين في أجيال متلاحقة: يتسلم كل جيل تراث من قبله، ويعمل في دأب وروية ليتقدم به قليلاً أو كثيراً. وموضوعنا في هذه الدراسة: من تاريخ النحو العربي.

وبعد، فماذا يراد من كلمة (مذهب) أو (مدرسة) حين يقال في علوم اللغة العربية: مذهب البصريين أو مدرسة الكوفيين؟

إن نظرة فاحصة في دراسات المحدثين تقودنا إلى الشك في بعض ما عدوه من المسلمات انسحاباً على أذيال القدماء ممن تكلم في النحو والنحاة.

لقد أدار هؤلاء التصنيف على البلدان فقالوا: ((نحاة الكوفة)) و ((نحاة البصرة)) و ((نحاة بغداد)) حين ألفوا في الطبقات. فساق هذا - مع تساهل كبير - إلى أن قيل فيما بعد: ((مذهب البصريين)) و ((مذهب الكوفيين)) و ((مذهب البغداديين)).

وقد حان الوقت لتصحيح هذه التسمية، فالأقدمون ومن تأثر بنظرتهم من المحدثين جعلوا البصريين أهل القياس، لأن من ضبطه منهم كثيرون جداً ولهم فيه عناية بالغة، على حين عدوا الكوفيين أهل سماع، لأنهم سجلوا كل ما سمعوا، وأراغوا القياس عليه فلم يحكموه إحكام الأولين وإن أربوا عليهم في السماع مقداراً لا ضبطاً وجودة.

* * *

هذه الصفحات محاولة في وضع الأمور في نصابها حيال ما يسمى بالمدارس أو بالمذاهب النحوية من جهة، ووقفة تاريخية فاحصة متروية عند نشأة هذا الفن من جهة أخرى.

والفن أو العلم كائن حي يخضع له الأحياء من سنن الحياة: يبدأ جنيناً فرضيعاً فطفلاً فيافعاً ففتى فشاباً...

وحول نشأة النحو بعض غموض اجتهدت في جلائه بما لدي من أضواء، ممتحناً الأخبار والروايات، متحريراً فيها ما يشبه الحق وطبيعة الأشياء؛ حتى إذا اطمأننت